الدكتور علي الوردي
أستاذ علم الاجتماع
جامعة بغداد

دراسة في طبيعة المجتمع العراقي

محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الأكبر
في ضوء علم الاجتماع الحديث

www.ketab.ir

www.ketab.ir

هوية الكتاب

دراسة في طبيعة المجتمع العراقي
المؤلف: الدكتور علي الوردي
مكتبة: موسسة سيدة المعصومة (سلام ا... عليها)
مطبعة: ثامن الحجج (عليه السلام)
الطبعة الاولى / ١٤٢٦ ه.ق
الكمية: ١٠٠٠ نسخه
سعر: ٣٥٠٠٠ ريال
شابک: ٩ ـ ١٥ ـ ٦١٩٧ ـ ٩٦٤

المقدمة

ان هذا الكتاب الذى اقدمه بين يدى القارى ، والكتب التالية له ، هي خلاصة دراسة طويلة شاقة • فقد بدأت بدراسة المجتمع العراقى منذ أكثر من عشرين عاماً • وازدادت هذه الدراسة تركيزاً منذ عام ١٩٥٠ ، وهو العام الذى عينت فيه مدرساً لعلم الاجتماع في كلية الآداب والعلوم ببغداد •••

ولابد لي من الاشارة هنا الى أنى تطرقت الى دراسة المجتمع العراقى في بعض كتبى ومحاضراتى العامة ، سابقا ، كما يلى :

(١) في عام ١٩٥١ ألقيت محاضرة عامة في قاعة « الملكة عالية » كان عنوانها « شخصية الفرد العراقي » • وقد طبعت هذه المحاضرة بعد اضافة بعض الزيادات عليها في كتاب صغير حيث نشر في العام نفسه •

(٢) وفي عام ١٩٥٤ ، أخرجت كتاب « وعاظ السلاطين » حيث تطرقت في فصوله الاولى الى طبيعة المجتمع العراقى في صدر الاسلام ، والى العوامل الاجتماعية التى أثرت في تكوين الشخصية فيه •

(٣) وفي عام ١٩٥٨ ، دعتنى هيئة الدراسات العربية في جامعة بيروت الاميركية الى القاء محاضرة عامة في موضوع « الضائع من الموارد الخلقية في البلاد العربية » • وقد ركزت أبحث في تلك المحاضرة حول أخلاق أهل العراق بوجه خاص • ونشرت المحاضرة في مجلة « الابحاث » التى تصدرها الجامعة المذكورة ، في شهر حزيران من العام نفسه •

(٤) وفي عام ١٩٥٩ ، اشتركت في مؤتمر علم الاجتماع العالمى الرابع الذى انعقد في مدينة شتريزا ، في شمال ايطاليا • فقدمت في المؤتمر بحثا حول البداوة وأثرها في المجتمع العراقي • وقد أتيح لي حينذاك أن أناقش عالمين كبيرين من علماء الاجتماع حول البحث ، واستفدت منهما فائدة غير قليلة •

(٥) وفي عام ١٩٦٢ • دعيت لحضور مهرجان ابن خلدون الذى عقد في القاهرة تحت اشراف المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية • فألقيت فيه محاضرة حاولت فيها دراسة نظرية ابن خلدون من حيث أهميتها في فهم المجتمع العربى بوجه عام ، والمجتمع العراقى بوجه خاص • وقد نشر المركز تلك المحاضرة ، مع بقية المحاضرات ، في كتاب خاص ، عنوانه « أعمال مهرجان ابن خلدون » •

www.kotob.ir

(٦) وفي عام ١٩٦٢ ايضا ، القيت عدة محاضرات في معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة • وقد نشر المعهد تلك المحاضرات في كتاب عنوانه « منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته » • وقد دعوت في الكتاب والمحاضرات الى ضرورة انشاء « علم اجتماع عربي » يستمد جذوره من نظرية ابن خلدون ، ويستعين بها في دراسة الظواهر الاجتماعية في البلاد العربية المختلفة •

قصدى من ذكر هذه البحوث السابقة هو لفت نظر القارىء الى أن الآراء التي وردت فيها لم تكن نهائية • فقد غيرت البعض منها ، وأبقيت البعض الآخر على حاله • وهذا أمر لا أعتذر عنه • فالبحث العلمي من شأنه التغيير والتطوير ، اذ هو يسير في ذلك تبعا لتغير المعلومات التى يعثر عليها الباحث مرة بعد مرة • ولهذا أرجو من القارىء ان لا يستغرب حين يجدنى أقول في هذا الكتاب برأي مخالف لما جاء في بحوثي السابقة •

الواقع انى ، خلال دراستى الطويلة للمجتمع العراقى ، قد ناقضت نفسي كثيرا • وربما أخذت اليوم برأي ، وتركته غدا ، ثم رجعت اليه بعد غد • وقد لاحظ الطلاب ذلك منى ، حيث وجدونى أغير منهج الدراسة في موضوع المجتمع العراقي عاما بعد عام • ولست استبعد ، بعد صدور هذا الكتاب ، أن أغير كثيرا من الآراء التى وردت فيه • وربما شهد القارىء في كتبى القادمة آراء مناقضة لها !

مراجع الكتاب :

اعتمدت في تأليف هذا الكتاب ، والكتب التالية له ، على مراجع شتى يمكن تصنيفها على المنوال التالى :

(١) الكتب والمقالات والنشرات : وهذه قد توافر منها في الآونة الاخيرة عدد لا يستهان به • وأود أن أخص بالذكر منها تلك الرسائل العلمية التى قدمها أصحابها لنيل شهادة الدكتوراه ، وقد طبع بعضها ككتاب الدكتور فاضل الجمالى ، وكتاب الدكتور متي عقراوى ، وكتاب الدكتور شاكر مصطفى سليم ، وكتاب الدكتور محمد سلمان حسن ، وغيرها • وهى كلها تبحث في المجتمع العراقي على وجه من الوجوه •

(٢) تقارير الطلاب : فقد كنت أطلبها من الطلاب في موضوع المجتمع العراقي كل عام • فتراكم عندى منها على توالى الاعوام عدد كبير • لا انكر أن بعض هذه التقارير كان تافها وليس فيه قيمة علمية كبيرة • ولكن البعض منها ، وهو قليل طبعاً ، يحتوى على ملاحظات واستقراءات اجتماعية نافعة • ولقد أتاحت لى هذه التقارير ، على أى حال ، أن ازداد تبصراً في المجتمع العراقي عاما بعد عام • فالطلاب يأتون الى الجامعة من شتى أنحاء العراق ، القريبة والبعيدة • ومنهم من جاء من البلاد العربية

المختلفة • فكانت تقاريرهم عن تقاليد مناطقهم وقيمها الاجتماعية تنـور الذهن ، قليلا او كثيرا • واني اذ اقدم هذا الكتاب لابد لي ان اعترف بفضل هؤلاء الطلاب وعونهم في الحصول على كثير من المعلومات التي وردت فيه •

(٣) الندوة التلفازية : وهذه كنت اقوم بها في محطة تلفزة بغـداد عام ١٩٦٠ ، وكان عنوانها « أنت تسأل ونحن نناقش » • وقد وصلتني من جراء ذلك رسائل كثيرة يسألني فيها أصحابها حول بعض مشاكلهم الاجتماعية • وقد استفدت من هذه الرسائل فائدة غير قليلة ، ولا أزال احتفظ بهـا ، اذ اعتبرهـا مرجعـاً لدراسة المجتمع العـراقي • فهي تمثل نوع المشاكل الاجتماعية التي يشكو منها بعض أهل العراق ، لا سيمـا الجيل الجديد منهم ، وما هو الصراع النفسي الذي يعانونه تحت وطأة تلك المشاكل •

ويؤسفني ان أقول ان « المسؤولين » لم يرضوا عن تلك الندوة ، ولم تلق هوى في قلوبهم • فأمروا بالغائها • وبهذا انقطعت عني الرسائل التي كنت أستفيد منها(١) •

(٤) ملاحظاتي الشخصية : فقد اعتدت منذ زمن غير قصير أن اتجول في نواحي المجتمع العراقي وأصغي الى أحاديث العامة ، لا سيما المعمّرين منهم • واولعت بذلك ولعاً شديداً • وقد عانيت من جراء هذا الولع شيئاً من المشقة والحرج • فالكثيرون من الناس في العراق لا يستطيعون ان يفهموا كيف يمكن أن تكون أحاديث العامة مصدراً للعلم • فهم اعتادوا أن يعتبروا العلم ذا مستوى رفيع ولا يجوز ان ينزل الى مستوى « الحمال والبقال » • فاذا راوا رجلا « متعلما » يخالط السوقة ويصغي الى لغوهم وبذاءتهم ، استنكروا منه ذلك واستهانوا به •

الواقع أن علم الاجتماع هو بطبيعته « متواضع » يستمد اكثـر معلوماته من السوقة ومن السفلة والمجرمين والغوغاء • فهؤلاء بمنابزاتهم ومفاخراتهم ، وبتعاونهم وتنازعهم ، يمثلـون القيم الاجتماعية السـائدة أصدق تمثيل • وهم بهذا المعنى افضل من المتعلمين • فالمتعلم يميل عادة الى التحذلق والى التظاهر بخلاف ما يضمر • اما العامي فهو في الغالب غير قادر على اخفاء ما في اعماق نفسه من عقد وقيم • فهي تظهر عليه حين يتنازع او يتشاتم ، وحين يتعاون او يتفاخر •

---

(١) أجرت احدى الصحف البغـدادية استفتاءاً حـول أفضل ندوة تقدمها محطة التلفزة في ذلك الحين • فكانت نتيجة الاستفتاء : أنها ندوة « أنت تسأل ونحن نناقش » • ولم تمض على هذا الاستفتاء سوى مدة قصيرة حتى ألغيت الندوة بلا اعتذار • وليس هذا بالامر العجيب في هذا البلد « الامين » •

مشكلة الكثير من الناس في العراق أنهم لا يفهمون هذا ولا يستيسغونه • يبدو أنهم لا يزالون يعيشون في اطار عقلية قديمة ، اذ هم يعتقدون أن العلم يجب أن يكون أسمى من مستوى الجماهير وأنه كلما ازداد سموا وتحذلقا ارتفعت قيمته • وهذا مفهوم قد استمد جذوره من طبيعة الطبقة التي كانت ترعى العلوم قديما ـ أى طبقة الحكام المترفين • فهذه الطبقة كانت تريد من العلم أن يكون زينة لها تتباهى به وتتكبر على من هم دونها من عامة الناس • أما الآن فقد دالت دولة هذه الطبقة وأصبح المقصود من العلم أن يكون من وسائل خدمة الجماهير بدلا من أن يكون من مظاهر التعالى عليها •

انتقاد غير مقبول :

انتقدني بعض النقاد لانى لا أتبع في دراستى الاجتماعية الطريقة الاحصائية المنظمة المتبعة في أمريكا وغيرها من البلاد « الراقية » • وهذا انتقاد لا أقبله على الرغم من وجاهته الظاهرة • ان المجتمع العراقي هو غير المجتمع الامريكى • فهناك يستطيع الباحث أن يطرق الابواب على ربات البيوت يسألهن أى سؤال يخطر بباله ، وهن يحترمنه ويقدمن له الجواب الصحيح في كثير من الاحيان • اما عندنا فالامر يختلف عن ذلك اختلافا واضحا •

لقد عانى العراق منذ عهود بعيدة فجوة واسعة بين الشعب والحكومة فيه • فالشعب يعتبر الحكومة كانها عدوة له لا تاتى له بأية منفعة ، وكثيرا ما يأتى الضرر منها • وقد لاحظت هذا في أوساط العامة بوضوح • فهم اذا رأوا « افندياً » قادماً اليهم ، وبيده قلم ودفتر ، حسبوه قد جاءهم لجباية الضريبة ، او للتجنيد ، او لسوقهم الى الحبوس • وهم قد اعتادوا أن يكذبوا في جوابهم له بشتى الطرق ، خشية أن يصيبهم منه مكروه •

واذا جاءهم باحث اجتماعي حسبوه من جلاوزة الحكومة • فهو « افندى » في ملابسه ، وبيده قلم ودفتر ، اما اذا لبس الباحث ملابس اعتيادية مثلهم ، ظنوا انه جاسوس أرسلته الحكومة للتجسس عليهم • ولهذا كنت اذا أردت الدراسة أحاول نيل ثقتهم قبل أن أبدأ بالسؤال • وكنت أوجه اليهم الاسئلة تلقائياً ، وأحرضهم على الاجابة عن طريق اثارتهم وبعث الحماس والفخر فيهم •

في رأيي أن أصح طريقة لدراسة المجتمع العراقي هى تلك التى جاء بها العالم الالماني المعروف ، ماكس فيبر • وهي التى تعتمد على « التفهم » وتكوين « المثال النموذجى »(١) • فهى ملائمة لطبيعة مجتمعنا وظروفه

(1) Barnes (History of Sociology) p. 290—292.

الخاصة • اما الطريقة الامريكية فهي غير ملائمة ، وقد تورطنا في مشاكل واخطاء نحن في غنى عنها • ومهما يكن الحال فاننا يجب ان نرجىء استخدام هذه الطريقة الى أن يصبح المجتمع العراقي كالمجتمع الامريكي قلبا وقالبا • وهذا امر بعيد !

المجتمع العراقي والعربي :

هناك انتقاد ثان جابهني به نقاد آخرون • ففي رايهم أننا يجب ان ندرس المجتمع العربي اولا • اما المجتمع العراقي فهو ليس سوى جزء من المجتمع العربي الاكبر • وهم يقولون ان الكل اولى بالدراسة من الجزء •

اني أخالفهم في هذا الرأى مخالفة كبيرة • أود أن أسألهم هنا : كيف يمكن دراسة المجتمع الكبير من غير دراسة الاجزاء الصغيرة منه ، كل على حدة • فالمعروف في الطريقة « الاستقرائية » الحديثة أنها تبدأ بدراسة الجزئيات لكي تتوصل منها الى فهم الكليات العامة • يبدو أن هؤلاء النقاد يريدون أن يرجعوا بنا الى اتباع الطريقة « الاستنتاجية » القديمة • وهذا امر لا اقرهم عليه •

لا شك في وجود صفات عامة يشترك فيها العرب في جميع اقطارهم • ولكننا مع ذلك يجب أن نعترف بوجود صفات يختلفون فيها ايضا • ونحن لا نستطيع أن نفهم هاتيك الصفات ، المتشابهة والمختلفة ، ما لم نبدأ بدراسة كل قطر من الاقطار العربية على حدة • وعندما يتم ذلك يأتي الباحثون ليقارنوا بين تلك الاقطار ويخرجوا بالنتائج المنشودة •

من خصائص الوطن العربي أنه يشمل بقعة من الكرة الارضية واسعة جدا ، فهو يمتد من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي ، حيث تستغرق الشمس في اجتيازه اكثر من ثلاث ساعات • وقد مر على هذا الوطن دهر طويل كانت المواصلات بين أطرافه المتباعدة عسيرة جدا ، تستخدم فيها الابل والدواب ، او السفن الشراعية البطيئة ، وتستغرق أياما عديدة او شهورا •

وهذا التباعد بين اقطار الوطن العربي جعل كل قطر منها يعاني ظروفا خاصة به تختلف عن ظروف الاقطار الاخرى • فلم يحدث مثلا أن تمكن فاتح من فتح جميع الاقطار العربية ، ومن ابقائها تحت سيطرته المباشرة • ولهذا وجدنا كل قطر عربي له تاريخه الخاص من النواحي السياسية والاقتصادية والدينية وما اشبه •

يتضح هذا في تباين اللهجات بين الاقطار العربية المختلفة • شهدت في مرسيليا ، عام ١٩٥٠ ، رجلين من الجزائر • وكانا من العامة وغير متعلمين • فلم افهم من كلامهما شيئا ، وكانهما كانا يتكلمان بلغة غير

عربية • الظاهر أن تباين اللهجات بين الاقطار العربية يزداد شدة بمقدار صعوبة الاتصال الاجتماعي بينها •

مما يجدر ذكره أن وسائل المواصلات الحديثة ، وانتشار الكتب والصحف والاذاعات ، أخذت تقرب بين الاقطار العربية المختلفة • وهذا يؤدي طبعا الى تضاؤل الفروق الاجتماعية واللغوية بينها شيئاً فشيئاً • والمتوقع أن تزول الفروق ، الى حد ما ، بعد زمن قصير او طويل • ولكننا على الرغم من ذلك يجب أن لا ننسى ، ونحن نعيش في المرحلة الراهنة ، أن هذه الفروق لا تزال حقائق قائمة لا يجوز الاستهانة بها • وليس من الصواب أن نعالج المشاكل في قطر من الاقطار العربية في ضوء دراستنا لقطر آخر •

الواجب القومي يحتم علينا ان نعالج مشاكل كل قطر في ضوء قيمه وظروفه الخاصة به • ان التعميم المطلق في هذا المجال غير جائز •

تيار جديد :

منذ عهد غير بعيد أخذت تصدر بعض المؤلفات المعنية بدراسة المجتمع العربي بوجه عام • وقد انعقد في الاسكندرية منذ بضع سنوات مؤتمر على مستوى جامعي أريد به وضع منهج لدراسة المجتمع العربي • وادخلت مادة المجتمع العربي في مختلف الكليات في الجمهورية العربية المتحدة • والظاهر ان جامعة بغداد أخذت تحاول الاقتداء بهذا التيار الجديد •••

ان هذا التيار على اي حال ستكون له ثمراته النافعة • ولكني لاحظت فيه أنه في الغالب ينحو منحى التوعية والارشاد أكثر مما ينحو نحو الدراسة الموضوعية الواقعية • فأكثر المؤلفات التي صدرت في هذا السبيل يبدو عليها انها كتبت لغرض معين هو خلق جيل من الشباب القومي الواعي • خذ مثلا احد هذه المؤلفات ، ولعله من أهمها ، حيث اشترك في تأليفه مجموعة من أساتذة جامعة القاهرة ، وعنوانه « الوجيز في دراسة المجتمع العربي » • فقد جاء في مقدمته ما نصه :

« ونستطيع أن نقرر الآن ، بعد أن قمنا طوال هذه السنوات الاربع بتدريس تلك المادة في أضخم الكليات الجامعية ، أن التجربة نجحت فعلا ، وأن ادخال مادة المجتمع العربي في المناهج الجامعية قد حقق الغرض المقصود منه في خلق شباب واع مستنير ، يؤمن بالله وبعروبته ويعرف ماله وما عليه ويحيط علما باوضاع أمته العربية ، وآمال هذه الامة في مجتمع عربي سليم مترابط الاوصال ، يشعر كل فرد بآدميته وكرامته وكرامة أمته »(١) •

---

(١) الوجيز في دراسة المجتمع العربي ، ص : ص ز

لست اشك أن هذا المنهج « الوعظي » في دراسة المجتمع العربي مهم ومفيد ، لا سيما اذا أخذنا بنظر الاعتبار كون المؤلفات السائرة على هذا المنهج قد كتبت لتوضع بين أيدي طلاب هم في السنوات الاولى من دراستهم الجامعية ، فلابد لها اذن من ان تنحو نحو الوعظ والتوجيه ، لكي تفتح عيون الطلاب الى ما عليهم من واجبات تجاه وطنهم الاكبر . ولكني أعتقد أننا لا يجوز لنا ان نقف عند هذه الدراسة التوجيهية ، فنكتفي بها ، ولا نتعداها الى دراسة اخرى اكثر عمقاً منها وأقرب الى منهج علم الاجتماع الحديث .

أخشى اننا اذا غلونا في الاندفاع بهذا التيار ان نكون مثل « وعاظ السلاطين » الذين كانوا يملأون عقول الناس بالمثل الطوبائية ، بينما هم يغضّون النظر عن الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه الناس ، والذي يمنعهم من ادراك تلك المثل العالية .

www.ketab.ir